

III - واقع الوجود: محطات ومواقف.

أ- تضرع وتفويض:

لقد أوصلها الألم إلى اللجوء إلى الله، فتتضرع في خشوع لتهدأ نفسها وتسكن جراحها، وتنعم -ولو لحين- بطمأنينة تأتيها من تقلب وجهها في ملكوت الله، إنه زهد روحي رغم حال الكآبة التي تعتربها، لتتخلص من توترها وقلقها بالتعويض والإنابة، وبذلك يتحقق لها:

1. الخلاص من القيد المادي بالعودة إلى الله:

- (يا لهذا الشيد أوغل في أعماق ذاتي مُحطما أصفادي

يا لقبدي الأرضي يسحقه اللحن ويذروه حفنة من رماد

وإذا الروح في تجرده يسمو مشعا كالكوكب الوقاد)<sup>(1)</sup>

2. العودة إلى المنبع والتحرر بالفناء:

- (أنا يا رب قطرة منك تاهت فوق أرض الشقاء والتشكيد

فمتى أهتدي إلى منبعي الأسمى وأفنى في فيضه المنشود

ضاق روحي بالأرض، بالأسر، بالقيد، فحرر روحي وفك قيودي

ضمني، ضمنني إليك، فقد طال انفصالي، وطال بي تشريدي)<sup>(2)</sup>

3. الخلود الذي لا فناء بعده، ولا فناء لحبيب فيه:

- (يا لهذا الصفاء.. يا لتجلي الله.. يا روعة الجلال الفريد!

...) لكأني أحس وشك اتصالي.. لكأني أشم عطر الخلود!)<sup>(3)</sup>

يصنع هذا المد الروحي فضاءً تنكشف فيه الحجب عند نقطة الفناء كما هو حال المتصوفة، ولذلك يأتي تضرعها وتفويضها بسبب حالة الشعور بالنقص والفقدان التي لازمتها.

لقد تبين أن الفناء يحقق لها رغباتها الملحة في هذا النص، كما يتعين في ((صلاة إلى العام

الجديد)) ما كان ينقص حياتها وحياة الآخرين حولها:

4. (أعطنا حبا فبالحب كنوز الخير فينا

تتفجر)<sup>(4)</sup>

1- الديوان، تهويمية صوفية، ص 111.

2- الديوان، تهويمية صوفية، ص 112.

3- الديوان، تهويمية صوفية، ص 112.

4- الديوان، صلاة إلى العام الجديد، ص 313.

5. (أعطنا أجنحة نفتح بها أفق الصعود

تنطلق من كهفنا المحصور من عزلة -

جدران الحديد)<sup>(1)</sup>

6. (أعطنا نورا يشقّ الظلمات المدلهمة

وعلى دفع سنه

(... نجتني منها انتصارات الحياة)<sup>(2)</sup>

هو الحب والحرية والنور في عالم تملأه الكراهية والعزلة والقيود والظلام والهزيمة، فتحول النقص النفسي من لقاء أخيها إلى مقومات الحياة، وبه صار الصراع صراعاً جديداً بين طرفيه تماثل وتساو... وهو احتمال التوسط الجامع بين حالتين، وقبله يحتمل أن يكون الوضع مستمراً من الماضي إلى الحاضر بكاءً على أخيها فترجو حبا يعم الحياة، وأجنحة هي وسائل للانفراج من حال السوء التي تعانيها (العيش في كهف/عزلة/جدران الحديد)، ونورا يُذهب هواجس الليل وأخاييله. وفي ملفوظات (كهف+عزلة+جدران الحديد) ما يعادل حال التسيير والفرض وقيود القدر، وهو ما يتساق مع عقيدتها بعد فراق أخيها.

وبعده . أي احتمال التوسط . يحتمل أن يكون الوضع بعد الكارثة والاحتلال، فتكون الأجنحة توقانا للحرية ونبذاً للعزلة المفروضة وكسر جدران الحديد القائمة بفعل الاحتلال، هي السجون والمعتقلات والظلمات، صورة لحال المقيمين فيها عنوةً واستبدالاً على الاحتلال. وعليه؛ فانتصارات الحياة هي حال ما بعد الاستقلال والنصر، بعد انتفاء الحرمان وحصول التعويض.

ويحتمل أن يكون محمول ((تهوية صوفية)) مصروفاً إلى مرحلة معاناتها من فقدان أخيها، ويكون محمول ((صلاة إلى العام الجديد))، مصروفاً إلى مرحلة قيام الكيان الإسرائيلي. والتاريخ المقيد آخر النص<sup>(3)</sup> يقوم دليلاً على ذلك. ودليل الأول وروده ضمن جملة نصوص مصروفة إلى مرحلة الرغبة في الفناء<sup>(4)</sup>. ولغياب عنصر التاريخ في النص الأول، تعيّن كل هذه الاحتمالات وهي ممكنة الوقوع بوحدة من التخريجات السالفة. وعالمها يميزه النقص والشعور بالفقدان:

<sup>1</sup> - الديوان، صلاة إلى العام الجديد، ص 313.

<sup>2</sup> - الديوان، صلاة إلى العام الجديد، ص 314.

<sup>3</sup> - الديوان، ص 314، والتاريخ هو: أول يناير 1958.

<sup>4</sup> - بنية الفناء، هي مرحلة الواقع الممتدة من أول بكانيتها على أخيها إلى قيام الكيان الإسرائيلي (1941 - 1948)، وفيها مرحلة الواقع الرويا بحلم اللقاء وشبح الفراق وما قبل الأول وما بعد الثاني.

... وطن	لا وطن	لا أخ
حب	كره	
حرية	قيد = السجن	
نور = الاستقلال	ظلام = الاحتلال	
نصر	هزيمة	
العالم المأمول فيه	العالم المخبر عنه	
	أخ	لا أخ
	حب	كره
الضييق والانفراج	حرية [تحوّل القدر]	قيد القدر
والإتساع	نور أبدي	ظلام وهو اجس
	لقاء يحصل بالفناء	فراق = الهزيمة
	الحقيقي	أمام الزمن والقدر

ب- القهر والقيود والقدر المحتوم:

وسدي علي رحاب الفضاء

- (لعنت؛ احببي نور حريتي

ولكن قلبي هذا المغرّد لن تطفئي فيه روح الغناء)<sup>(1)</sup>

- (أعنتي ولو سحقتني القيود أغاريد نفسي وأشواقها

تبارك لحني أُمي الحياة فلحني من عمق أعماقها)<sup>(2)</sup>

ولكن كيف تتخلص من أشكال القهر التي تلازم فكرها، فتعود بها الخواطر إلى لحظات البدء

لتصنع حياةً غير حياتها الحالية:

- (لو أني رجعت صغيرة

لحوّلت مجرى حياتي

لغيرت خط اتجاهي

وحرّرت ذاتي)<sup>(3)</sup>

<sup>1</sup> - الديوان، من وراء الجدران، ص 113.

<sup>2</sup> - الديوان، من وراء الجدران، ص 115.

<sup>3</sup> - الديوان، لا مفر، ص 357.

ويخالطها الشك والريب أن تقوى على هذا التغيير حتى ولو عادت:

- (أملك تغيير مجرى حياتي

وتحرير ذاتي؟

أكنت أبذل حقاً مصيري

وأملك تسيير خطواتية؟<sup>(1)</sup>

في كلامها لا خيار، فحياتها قدر مفروض محتوم:

- (محال، محال

لو أنني رجعت صغيرة

(...) لكنت أواجه نفس المصير

ونفس الضياع

(...) وما من خلاص، وما من مفر<sup>(2)</sup>

والحقيقة صراع ذاتي قطباه العقيدة وما تفرضه من إيمان والواقع وما يثيره من هواجس:

- (لن تفك قيود أسري

سأظل وحدي

في انطواء

ما دام سجاني القضاء<sup>(3)</sup>

- (ومرّ بقلبي نداء العناصر

في خطفة عبرت كالحلم

بأن المقادير قد وضعتني

أمامك<sup>(4)</sup>

- (أنا من رماني عليك القدر<sup>(5)</sup>

- (في انتظارك

<sup>1</sup> - الديوان، لا مفر، ص 357. والمعنى نفسه في قولها: (مراكب تمر إثر مراكب تدفعها قوة القاهرة)، ليل وقلب، ص 40.  
<sup>2</sup> - الديوان، لا مفر، ص 358، وقولها: (وهنا في الأرض يهتف بي صوت يقيد خطو أقدامي)، أشواق حائرة، ص 42، تأكيد لقولها الوارد في المتن.

<sup>3</sup> - الديوان، الصخرة، ص 248.

<sup>4</sup> - الديوان، هو وهي، ص 271.

<sup>5</sup> - الديوان، هو وهي، ص 267.

أنا مهما رمت الأقدار بي حائلةً  
دون مزارك<sup>(1)</sup>

- (ويهب طيف الصخرة السوداء  
ممسوخ الصور

عبثاً أزرحتها  
سدى أبغي الهروب  
فلا مفر<sup>(2)</sup>

- (سأظل وحدي  
في نضال

وحدي  
مع الألم الكبير

مع الزمان  
مع القدر

وحدي<sup>(3)</sup>

محمول ملفوظاتها وحدة دائمة وقدر مسيطر مع ضعف وقلة حيلة، وهي معاناة تجسدها الصخرة في انتصابها على حياة الشاعرة، قد تكون حياة السجن والأسر، وقد تكون حياة الأسي والفقدان، وقد تكون كل ذلك مجتمعاً... ما أشبه صخرتها بصخرة بلال بن رباح-رضي الله عنه- فقد وجد من يزحزحها عنه مع صبره وقوة إيمانه، أفيكون في هذا الوجود من يقدر أن يزحزح عنها صخرتها؟ إنها تجزم بالوحدة الملمة وتعاسة ومعاناة... هي التجربة التي أكسبتها هذا اليقين.

### ج- إنسان ومكان وقداسة:

لقد سرى في أوصالها حب أخيها، وصَبَّ فيها حُبُّها له حُبُّها لوطنها، فلم تعد تفرق بينه وهو الإنسان وبين الوطن وهو المكان:

<sup>1</sup> - الديوان، هو وهي، ص 276-277. والمعنى نفسه في قولها: (أنكرت في الأرض هول الفناء وظلم القضاء وجور الليالي)، الديوان، هروب، ص 36. وفي [هروب] ص 37 منه: (أمن صرخات القلوب الدوامي تعض عليها نيوب القدر). وفي (طمأنينة السماء)، ص 55:

<sup>2</sup> - الديوان، الصخرة، ص 250. فما رأت غير حطام المنى على صخور القدر الغادر). وفي ص 56 من النص ذاته: (من أين والأقدار قد جففت منابع الأضواء من نفسها).

<sup>3</sup> - الديوان، الصخرة، ص 253.

(انفض جناحيك من الرقدة يا طائري، أخشى عليك المصير)<sup>(1)</sup>

فهو - إبراهيم - الطير، والرقدة رقدته في مثواه، وما المصير إذن ؟

- (ما شأن ذياك الدعي الدخيل

في الروض، والروض حماك الحبيب)<sup>(2)</sup>

يحتمل أن يكون الدعي الدخيل الوجود الأجنبي - الإنكليز أو اليهود - والروض موضع مثواه، ويحتمل أن يكون الوطن، فكلاهما روض. !.

لقد جمعت بين المفقودين: الأخ والوطن، وتماهت الحدود بينهما وتلاشت حتى صارا مادة واحدة، خطابها لأحدهما خطاب للآخر، لترسم القرائن: (الدعي الدخيل) و(الروض) و(الرقدة) و(الحمى الحبيب) ملامح الصراع بين صاحب الأرض بدليل وجوده في جوفها وبين الدخيل الوافد عليها. وفي ذلك لا تخفى نعمة الرفض والثورة، وللشاعرة قدوة وأسوة في مصر وما حدث فيها:

- (فجري الأعماق كل السر فيها

فانتفاضات الشعوب

وانطلاقات الشعوب

كلها تكمن فيها

من هنا تنهار جدران الظلام

من هنا تنحطم القضبان ترتدّ حطام)<sup>(3)</sup>

لا تنجح الثورة من غير إيمان بعدالتها وشرعيتها، ومستقر ذلك الأعماق، فإن تفجرت . هذه الأعماق . تنهار قوى الاحتلال ويتقلص وجوده في الذات (الإنسان) قبل الأرض .. ! .. وينتهي هتك حريات الآخرين. وبذلك تكون جدران الظلام والقضبان استبدالا للاحتلال والقيود. وفي مصر أيضا وجدت الشاعرة جوّ الحياة، وبدأت خروجها البطيء من سجن ذاتها، ولبأت إليها من غير هروب:

- (نفسى مصدّعة.. فضميني لأنسى فيك نفسي

قست الحياة وأترعت بمرارة الآلام كأسى

<sup>1</sup> - الديوان، الروض المستباح، ص 132.

<sup>2</sup> - الديوان، الروض المستباح، ص 132.

<sup>3</sup> - الديوان، شعلة الحرية، ص 163. وحطام بدل حطاما كما يقتضيه نحو الجملة.

والظلمة السوداء مطبقة على روعي وحسي<sup>(1)</sup>  
وعلى لسان أخيها تلوح بكفاحها ضد الغاصب المحتل:

- (وكان لي الفن والشعر صوتا

يجلجل في ثورة لا تلين

على الغاصبين حقوق الفقير

على السارقين حتى الكادحين)<sup>(2)</sup>

- (وفتحت عيني على أمة

...) تناضل رغم قيود الحديد

لأجل الحياة لأجل المصير

...) وقمت أثور مع الشائرين

لأحطم نير عبوديتي

وأرخص تحت عجاج الكفاح

دمائي من أجل حرיתי)<sup>(3)</sup>

- (يا وطني، مالك يخني علي

روحك معنى الموت، معنى العدم

...) جرحك ما أعمق أغواره

كم يتزرى تحت ناب الألم)<sup>(4)</sup>

تؤدي القرائن: (معنى الموت) و(معنى العدم) و(جرحك) و(ناب الألم) دور الرابط بين

المعاناة بفقدان الأخ والمعاناة بفقدان الوطن، ولا يفارقها الأمل برفع هذه الحال:

- (ستنجلي الغمرة يا موطني و يمسح الفجر غواشي الظلم

<sup>1</sup> - الديوان، في مصر، ص 103. [الظلمة السوداء = الاحتلال]

<sup>2</sup> - الديوان، هو وهي، ص 285.

<sup>3</sup> - الديوان، هو وهي، ص 285 - 286. وفيه من (هو وهي)، ص 286 ما يؤكد هذا المعنى:

(وهذي جراحي فلسطين تعلم  
كيف سفتها بكأس رَوِّي  
سأبقى أكافح صلب الجناح  
بوجه الحياة جريء القدم  
وإن حطمتني الحياة فحسبي  
أني صمدت فلم أنهزم).

<sup>4</sup> - الديوان، بعد الكارثة، ص 137.

(٣٠٠) هو الشباب الحر، ذخر الحمى

اليقظ المستوفز المنتقم

(٣٠١) لن يقعد الأحرار عن ثأرهم

وفي دم الأحرار تغلي النقم!<sup>(1)</sup>

فيكون الفجر حرية واستقلالاً كما يبدو الظلام قيذا واحتلالاً، وكل ظلام وليل قبل التحول لا يعدو إلا أن يكون الزمن الطبيعي، ولكنه بعد التحول والاحتلال صار صورةً له.

- (أيها الشرق، أي نور جديد لاح في عتمة الليالي السود

لف شَمَّ الجبال والسهل والحزن، وهام الربى ورمل البيد

وإذا أنت يفتح النور عينيك، فتصحو على الضياء الوليد)<sup>(2)</sup>

فتكون نهضة العرب من نهضة الشرق، والضياء هنا مناف لكل عتم وسواد، ليكون الأمل في تحول الحال وانجلاء المصائب، كما بدا لها تحولها الشعري من أنة الشقي إلى غناء السعيد:

- (فُدسَ الشعرُ، إنما الشعر أنات شقي أو أغنيات سعيد !)<sup>(3)</sup>

يحقُّ لها أن تفرح وقد سبق أن رأت بعين أخيها حلماً، آلت إليه الحال استشرافاً:

- (وأرسلت عينيَّ حيث رفوت

وقد دبَّ ثقل خفيِّ قلبي

(٣٠٢) رأيت الحمى خربة ماحلة

(٣٠٣) وأبصرت أشلاء قومي هنا

وهناك على طرف السابلة

عيون مفقاة بعثرت

على الأرض حباتها السائلة

وأيد مقطعة ووجوه

غزا الترب ألوانها الحائلة)<sup>(4)</sup>

ديار مخربة وأشلاء بشر مبعثرة، وباقيهم قطع شريد طريد:

<sup>1</sup> - الديوان، بعد الكارثة، ص 138 - 139.

<sup>2</sup> - الديوان، البيضة، ص 134، وفي (شعلة الحرية)، ص 163:

(ارفعوها [الشعلة] للملايين الذين

لم يزالوا ظامنين

لينابيع الضياء

الضياء السمح يهمني في سخاء)

<sup>3</sup> - الديوان، البيضة، ص 136.

<sup>4</sup> - الديوان، حلم الذكرى، ص 170.

- (قطيع وديع... بقية قومي

فهذا شريد وهذا طريد

تظللهم في العراء الخيام

وقد أخلدوا في هدوء بليد

(...) قصارى مطامحهم لقمة

مغمسة بهوان العبيد<sup>(1)</sup>

وما رأته بعينه تُشهدُهُ عليه، وتجعل منه قضيةً:

- (أخي أرايت القضية كيف

انتهت، أرايت المصير الرهيب

أتذكر إذ أنت ترسل شعرك

يطوي الحمى عاصفاً من لهيب

تحذّرهم من هوان المآل

كأنك تقرأ لوح الغيوب<sup>(2)</sup>

وتكون القضية هنا إما معرفته الفناء، وهو احتمال بعيد، وإما الوطن المغتصب، وهو الأرجح، فالمعتبر هو التصوير على الحقيقة، فلا داعي للصرف. وآخر الملفوظ الشعري استشراف منه لما سيؤول إليه الحال إذا تخاذلوا وتراجعوا ولم يصمدوا في وجوه الوافدين:

- (على العتبات تدبّ هوام

وتعبر قافلة قافلة

وبين الزوايا عناكب تحبو

وتمعن في زحفها واغلة<sup>(3)</sup>

والهوام والعناكب هم الوافدون استبدالاً بدليل الكثرة والزحف، وقد مارسوا على أهل الوطن ألوان الاستغلال والنهب لتتسائل مستغربةً عن الشراء المتزايد عند الظالم وعن الفقر المتفاقم عند المظلوم:

<sup>1</sup> - الديوان، حلم الذكرى، ص 171.

<sup>2</sup> - الديوان، حلم الذكرى، ص 172.

<sup>3</sup> - الديوان، حلم الذكرى، ص 170، قال ابن قتيبة في تعبير الرؤيا: (وسائر الهوام أعداء)، ص 38.

- (مَن يمطر الرزق على ذي الشراء

ويمسك الرزق عن المعدم ؟

كم بائس، كم جائع، كم فقير

يكدح لا يجني سوى بؤسه

ومترف يلهو بدنيا الفجور قد حصر الحياة في كأسه<sup>(1)</sup>

ويأتيها اليقين معيّنًا ظلم البشر فاعلا لهذا الوضع ومؤسّسا له:

- (لم تحبس السماء رزق الفقير

لكنه في الأرض ظلم البشر..)<sup>(2)</sup>

تقدم الشاعرة رؤية جديدة تقوم على ثنائية ظلم البشر وعدل السماء، بما يوجه المعركة إلى الأرض، وهي معركة غذاء وعدالة اجتماعية في ظل نظام الحماية البريطاني والصراع العربي اليهودي، وهو من صراع الإنسان مع الإنسان.

د- هي والنار [الحياة والفناء] :

سبق وأن كان للشاعرة مع النار موقف بعث فيها الحياة عند اللقاء والواقع حلما:

- (لست أدري لكن رأيتك روحا يوقظ الشوق في مسارب ذاتي

ويذري الرماد عن روعي الخابي، ويذكي ناري ويحيي مواتي)<sup>(3)</sup>

على آثار اللقاء (في البداية) حديث النار مبعث للحياة:

(وفي القلب نار جموح الوقود ينادي بها الشوق: يا نار زيدي

وطرفي قرير بذاك الشرود وقلبي سعيد بذاك الوقود)<sup>(4)</sup>

(وسمتك في خاطري مائل يهيج الحنين ويذكي اللهب)<sup>(5)</sup>

وتضمرت دموعها في عينها بفعل الفراق:

- (كم تلمست عمق عينيك فيه

وبعيني أدمع تتضرم)<sup>(6)</sup>

1- الديوان، مع سنابل القمح، ص 32.

2- الديوان، مع سنابل القمح، ص 33.

3- الديوان، من الأعماق، ص 65. ولها في (أوهام في الزيتون)، ص 28: (ونور قلبي، والرؤى والمنى، وهذه النار بأعماقيه)، ما يدل على أن النار مبعث للحياة، والحال ذاتها في قولها: (تغذوه نيران الحياة لظى، فيلتهب التهابا)، الديوان، في ضباب التأمل، ص 61.

4- الديوان، غب النوى، ص 70.

5- الديوان، غب النوى، ص 73.

6- الديوان، من الأعماق، ص 68.

وتؤكد إخمادها لئلا يبق بعد يقين عدم اللقاء:

- (وكنت طويت كتاب الحنين

وشوق السنين

وأخمدت ناري)<sup>(1)</sup>

غير أن النار التي ستتحدث عنها مخالفة للنار السابقة:

- (فيا نار زيدي لظي واشتعال

...) أما تسمعين احتدام النضال

نضال العواصف فوق الجبال)<sup>(2)</sup>

وما للعواصف نضال فوق الجبال إلا إذا كانت استبدالاً للشورة والكفاح، ولذلك رافقت  
الشاعرة في رحلتها:

- (فكنت رفيقة أوهاميه

ومسرح أحلام يقظاته)<sup>(3)</sup>

يبدو أن النار التي تخاطبها هي نار موقدها التي تدفئ برودة جسمها وتسعى إلى أن  
تشبّ وتستعر في الأرض جميعاً، لتكون النار ثورة الشعب منجداً وطنه، وهو الوهم والخيال  
الذي لا يفارقها:

- (وها أنا يا نار لو تعلمين

فتاة طوت حزمة من سنين

وما زلتِ رغم العهود الطوال

تشيرين فيها جموح الخيال)<sup>(4)</sup>

وترجع إلى حال اليأس والقنوط وتفقد أملها الكبير، ويسري فيها الذبول والهمود بمرور

الزمن:

- (مضى الليل غير هزيع قصير

وأنت همدت كأهل القبور

وحبات جمرك بعد اتقاد

خبت واستحالت تلؤل رماد

أتخمد مثلك نار شعوري

1- الديوان، وقد حدثتني ذات ليلة، ص 383.

2- الديوان، نار ونار، ص 93.

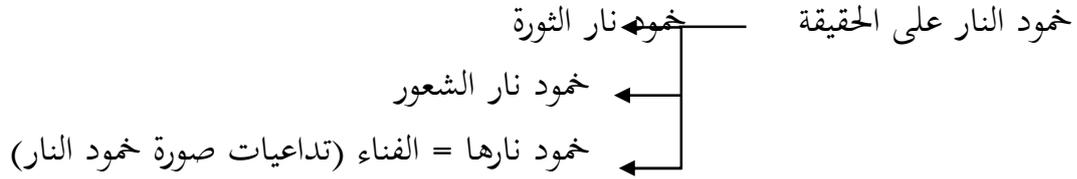
3- الديوان، نار ونار، ص 95.

4- الديوان، نار ونار، ص 98.

غدا، وتؤول لهذا المصير؟

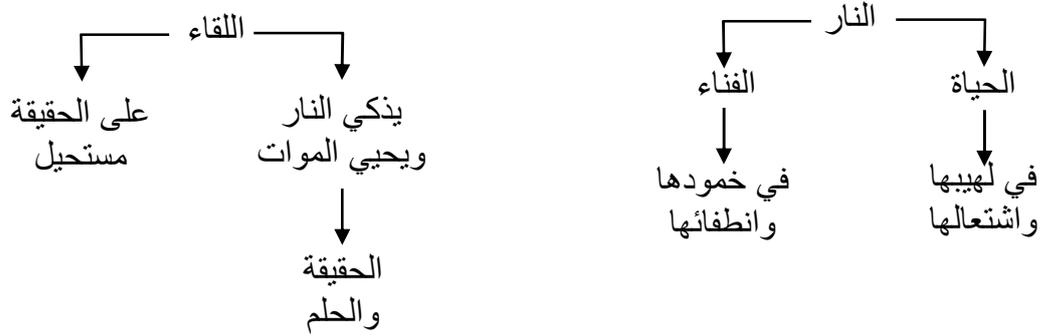
أيعشى أوارى رماد السنين؟

أيهمد قلبي كما تهمدين؟<sup>(1)</sup>

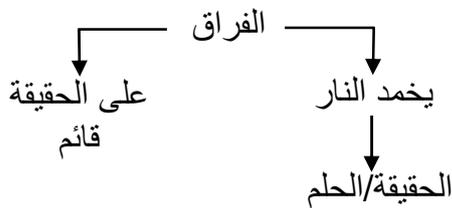


الظاهر أنها لا تريد خمودا، لما في الخمود من فناء، وقد كانت تريد هذا الفناء للقاء أخيها،

فكيف يرفع الاعتراض؟



وهذا على الحقيقة، وأما على التشبيه والتمثيل فالحال كما في اللقاء والفرق:



لقد عاشت زمنا من الفناء في الوجود دون لقاء، فلما كان لهيب الثورة قد أحيى فيها الأمل وأكسبها الترقب، اندفعت إلى الحياة وباعدت بين نفسها وبين الفناء، ليحصل عندها الأفضلان، نصر في الحياة أساسه حرية الوطن، ولقاء أكيد مع أخيها بعد الفناء الحقيقي، فلما رأت النار تحبو بعد ذكّوها وصارت ركاما من رماد خشيت أن تعود إلى جو الكآبة وضعف الأمل وقد أصبح الوطن هاجسا، الحياة له أولى من الفناء لغيره، وهذا احتمال.

والاحتمال الثاني أن تكون الحياة قد دبّت فيها، وصار الفناء عندها ممقوتا، والإنسان مجبول على حب الحياة، ومرادها السابق يأس وانطواء لا غير.

<sup>1</sup> - الديوان، نار ونار، ص 99.

والاحتمال الآخر أنها تخشى أن شعورها بحب أخيها وحبها لوطنها ورغبتها الملحة في لقاء الأول واستقلال الثاني يخدم كما خدمت نار موقدها، مما أثار فزعها وأجج عاطفة الخوف فيها، فنما قلقها وتصاعد توترها، وهو الأرجح عندي، وذلك لارتباط إشعال نارها بالزمن (ليل)، والزمن له مع الشاعرة صراع، وبهذا يرفع الاعتراض ويدفع التناقض، فلا هدفها تغيّر، ولا مرادها تزعزع، وهي ثابتة على عزمها، وإنما خوفها من مثير التحوّل في نفسها، وليس رغبة منها في البقاء والتعمير..!..

هـ- هجرة واغتراب وأمل وعودة:

تحمل الطبقة الأولى من الخطاب نعمة الهجرة والاغتراب في قصيدتين: ((ساعة في الجزيرة)) و((رجوع إلى البحر)):

- (بعيدان نحن هنا في الجزيرة

...) هنا يا رفيق حياتي أنا.

ومن أمامي، أمامي هنا

وهذا المكان----- [الهجرة = الطواف]

يلف الغرام سماه وأرضه<sup>(1)</sup>

- (هنا نحن، هذي يدي في يديك

ونار الحياة

تدبّ وتسرب منك إليّ

ومنيّ إليك

هنا نحن بعد الطواف البعيد

معا نستريح معا نستزيد<sup>(2)</sup>

يبدو المكان رائعا، تتحقق فيه الأماني العذاب، وهو موصوف بالبعد ويقتضي طوفا، ومع

ذلك يُؤمّن استراحةً، غير أن الإشكال ينمو مع الزمن والتقدم:

- (سيأتي الغد

ويتلوه بعده

ويجيء سواه ----- [الاغتراب]

وآخر يتبع آخر

<sup>1</sup> - الديوان، ساعة في الجزيرة، ص 222.

<sup>2</sup> - الديوان، ساعة في الجزيرة، ص 223.

ويعبر عام

وعام

وآخر

غدا تتبدل أحلامنا

غدا تتحول أيامنا

غدا تتغير<sup>(1)</sup>

فإذا حدث التبدل والتحول والتغير، وجبت العودة والأوبة:

—(أنا سنمضي يا جزيرة حلمنا

لا تمسكيننا بعد، يكفيننا بأرضك ما لقيننا)<sup>(2)</sup>

—(جننا نلملم ما تبعثر من خطى أعمارنا

...) لكن علمنا بعد حين

أنا زَرَعْنَا زَرَعْنَا فِي الْمَلْح، فِي الْأَرْض . ----- [العودة]

البوار

...) كان الجفاف نصيينا ولغيرنا خصب وظل)<sup>(3)</sup>

—(سنعود نسلم للرياح شراعنا

ونظل نحمل تيهنا وضياعنا

...) وهناك سوف نواجه التيه المحتم .

والمصير)<sup>(4)</sup>

—(بلى سأعود، هناك سيطوي كتاب حياتي

سيحنو علي ثراها الكريم ويؤوي رفاتي

سأرجع لا بد من عودتي

سأرجع مهما بدت محنتي)<sup>(5)</sup>

1- الديوان، ساعة في الجزيرة، ص 224.

2- الديوان، رجوع إلى البحر، ص 395.

3- الديوان، رجوع إلى البحر، ص 397.

4- الديوان، رجوع إلى البحر، ص 399.

5- الديوان، نداء الأرض، ص 154 - 155.

فأما الجزيرة فهي انكلترا، وأما العيش فيها فهو هجرة تولد الاغتراب وأما العودة فهي أوبة كل مهاجر أو مُهَجَّر من الوطن إليه:

- (ويبصر "يافا" جمالا يضيء على الشاطئ

ويسمع غمغمة الموج في بحرها الدافئ)<sup>(1)</sup>

- (وأهوى على أرضه في انفعال يشم ثراها

يعانق أشجارها يضم لآلي حصاها

ومرغ كالطفل في صدرها الرحب خدا وفم

وألقى على حضنها كل ثقل سنين الألم)<sup>(2)</sup>

- (وكانت عيون العدو اللئيم على خطوتين

ومزَّق جوف السكون المهيب صدى طلقتين)<sup>(3)</sup>

- (ومرَّ بطى الخطى فوق أرض

مضمخة بنجيع نفوح

تلفُّ ذراعين مشتاقتين

على جسد هامد مستريح)<sup>(4)</sup>

تمت العودة واستأنس العائد بأرضه، ولما نال منها الدفاء ورؤى الحنين همد عليها مضمخا في دماه، على الحقيقة شهادة، وعلى الحلم أملا فيها. إنه البحث عن لحظة السلام التي يعانق فيها المهجر والمهاجر أرضه:

- (من أي ينبوع خفي بعيد

يدفق هذا السلام

يدفق في نفسي كلحن سعيد

مفضض الأنغام

هذا السلام المستفيض الطليق)<sup>(5)</sup>

1- الديوان، نداء الأرض، ص 156.

2- الديوان، نداء الأرض، ص 159-160.

3- الديوان، نداء الأرض، ص 160.

4- الديوان، نداء الأرض، ص 161.

5- الديوان، هنية، ص 234.

- (هنيهة السلام لا تخطفي

ظلك من حولي

انتظري، لا، لا تطيري، قفي

ساكنة الظل)<sup>(1)</sup>

فلا سلام خارج الديار ولا سلام إلا في لحظة تفكير بالأرض، وما يجري عليها سلاما يجري على غيرها سلاما كما جرت عليهم جميعا نار العودة، وهي وغيرها شركاء فيها، ومصاحبها كمصاحبهم مهجر ولاجئ<sup>(2)</sup> يبحث عن أرضه عودةً، وسجين<sup>(3)</sup> يبحث عن أرضه حريةً، ومعدم<sup>(4)</sup> يبغض النقص ويرنو إلى الكمال في وطنه. وفي هذه الصور جميعا ينتقل شعورها منها إلى غيرها، قد تعدى الفردية إلى الجماعية.

يحمل هذا الوضع فدوى طوقان على التوجع في صورة مبهمة غامضة ضمننتها قصيدة ((أغنية البجعة))<sup>(5)</sup>، ومثلها ((الإله الذي مات))<sup>(6)</sup>، ويبدو أنها تريد انكلترا التي وزعت أراضي الحماية بالامتياز، ثم لم تعد قادرة على رد الامتياز لأهله، حتى صارت مثيرة للشفقة من منظورها، وهو احتمال وقد تريد غيره ولكنه غير ظاهر.

تشكل هذه القصائد خطاب الربط بين الأجزاء الأربعة الأولى وبين الأجزاء الثلاثة الأخيرة، وفي ذلك نموذج لخطاب شعري مميز، ليس فيه انفصال ولا انقطاع ولا تناثر ولا تنافر، فقط وجبت قراءة الكل قراءة مترامنة.

1- الديوان، هنيهة، ص 236.

2- الديوان، مع لاجئة في العيد، ص 140، نموذجا .

3- الديوان، إلى المغرد السجين، ص 321، وتوجه قصيدة إلى السجين كمال ناصر ويرد عليها بقصيدة أثبتتها في الديوان بعنوان [من الأعماق].

4- الديوان، يتيم وأم، ص 120، ورقية، ص 144.

5- الديوان، ص 315.

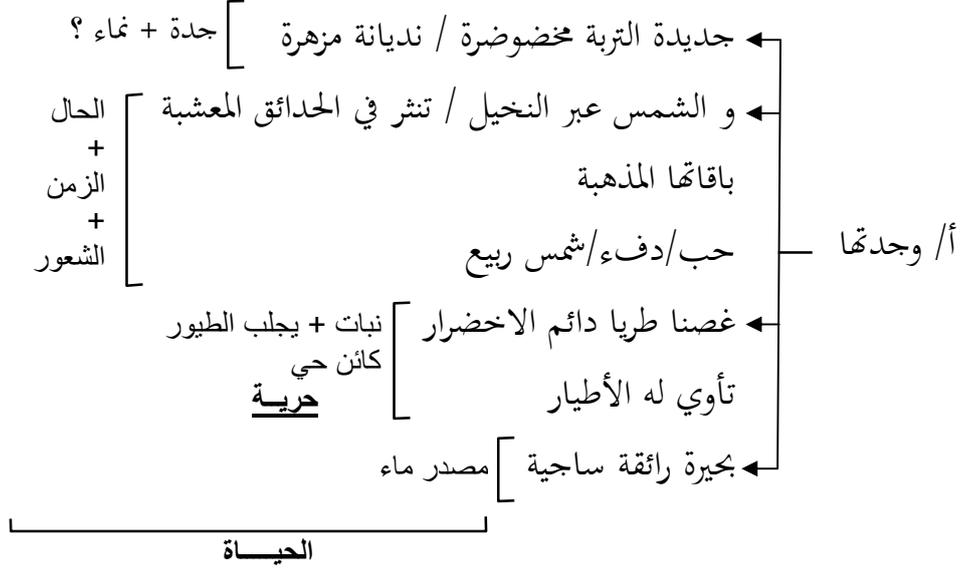
6- الديوان، ص 391.

و- وجدتها: الحقيقة التائهة... أم الحقيقة الجديدة ؟ !

ماذا وجدت ؟ يجري النص على الجمع بين الزمن والإحساس:

- (وجدتها في يوم صحو جميل

وجدتها بعد ضياع طويل)<sup>(1)</sup>



ب/ وجدتها ← يا عاصفات اعصفي ← الحوادث الدوامي

وقنعي بالسحب وجه السما ←

ما شئت، يا أيام دوري كما ← الزمن

قدر لي، مشمسة ضاحكة ← قدر ← أمل

← ألم

أو جهمة حالكة

حياة متقدة → فإن أنواري لا تنطفئ ← التخلص من هاجس الفناء  
هناك ما يجب العيش لأجله ←

و كل ما قد كان من ظل

يمتد مسودا على عمري

يلفه ليلا على ليل ← سواد دائم = مصائب متلاحقة

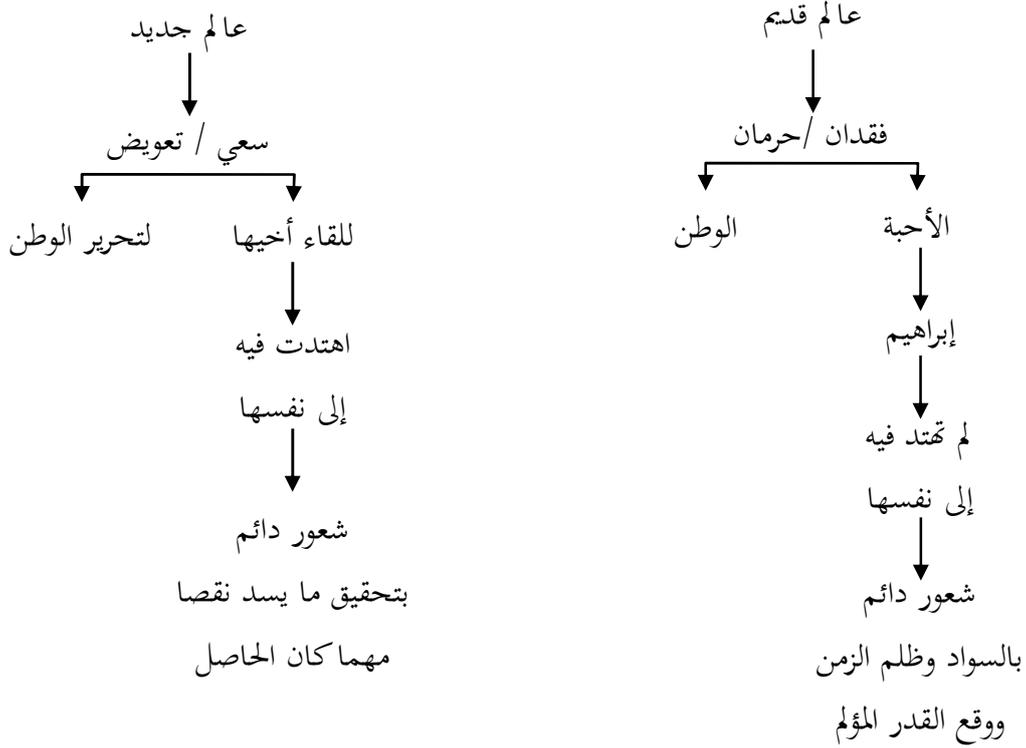
مضى، ثوى في هوة الأمس ← النسيان + المضي + الانتهاء

يوم اهتدت نفسي إلى نفسي ← الزمن الجديد + المعرفة الجديدة

<sup>1</sup> - الديوان، وجدتها، ص 174.

يتعين من هذا الوضع وجود حياة فيها جدة ونماء وحرية، فتكون هذه الحياة عينها هي ما وجدته، ويتعين بهذا الوجود وجود حياة قبلها لا جدة فيها ولا نماء ولا حرية، ليكون الوجود مميزا. وقد كان في يوم صحو جميل يفصل بين الحياتين، وكأنه يوم عيد، يوم الانقلاب من حال إلى حال. لقد جاء هذا اليوم . الزمن الجديد . لتجد فيه نفسها، وتحصل فيه على معرفة جديدة، تتحدى فيه كل الحوادث التي يأتي بها الزمن، ويفرضها القدر أملا كانت أو ألما، ويحتمل أن يكون المراد واحدا من أربعة:

1. ليس بعد ألم الفراق والفاء بلاء، وقد ذاقته بفقدان أخيها، وخرجت من التجربة بنصر يحمل المعرفة الجديدة، اهدت معها نفسها إلى نفسها، ففي الحياة ما يجب أن تعيش لأجله، وهو أعظم من التوقع على الذات والتحسر على المفقود. وذلك زمن الاتساع بعد ضياع وبحث طويلين.
  2. مهما كان كيد الزمن ومهما كانت آماله، فقد تساوت الأوضاع، وصارت قادرة على التأقلم مع جميعها.
  3. انتهت حياة التعاسة والأسى، وبدأت حياة الدعة والأمل. فقد طوى الأمس نكبات الدهر، وجاء بعده العهد الجديد، زمن الآمال والطموح.
  4. إذا اجتمعت كل الاحتمالات السابقة في احتمال واحد، هو الانتقال من حال إلى حال، وبينها وفيها كل ما سبق، وهو الأرجح عندي لاشتماله على الحقيقة كلها إخبارا. المشكل في كل هذا الوضع هو ((اليوم الصحو الجميل))؟! فبالنظر لحياتها فكل أيامها نكبات متواليات، وأيامها الجميلة قليلة إن لم تكن منعدمة بدليل إخبارها على امتداد الشطر الأول من الديوان، فيحتمل أن يكون هذا اليوم:
1. يوما ما بعد فراق أخيها وقبل قيام الكيان الإسرائيلي، ويترتب عليه إمكانية العودة إلى حياة السواد بفعل نعمة الفقدان التي تواصلت في حياتها.
  2. يوما ما بعد قيام الكيان الإسرائيلي، ويترتب عليه قيام حياة الكفاح وسيلة للتحرر؛ فقد ذهبت حياة النقص والفقدان وحلت حياة الكسب وتحقيق الآمال.
  3. لا يفترض أن يكون هذا اليوم قبل فراق أخيها وهو سابق لقيام الكيان الإسرائيلي، لعدم وجود علة الانفعال الأساسية، ويزيد هذا الاحتمال الأخير ثباتا أن الشق الأول من الديوان يحوي الحياة الأولى، كما يحوي بواد الحياة الثانية التي يحويها الشق الثاني من ديوانها، وحياتها عالمان:



يقوم عالمها الجديد على السعي لتحرير الوطن غايةً عظيمة؛ فإن تحققت نالت الرضى عن نفسها وحققت الرجاء والأمل، كما تسعى. إن لم يتحقق النصر على المغتصبين. إلى لقاء أخيها بعد فنائها من أجل فلسطين، وقد صار عندها بهذا الفكر الجديد توجه كلي إلى حياة لا خسارة فيها ولا فقدان.

يسعف هذا التأويل إدراجها لهذا النص في الجزء الثاني ((وجدتها)) وهو نفسه عنوان النص أيضا. وقد أدرجت فيه بدايةً كلها حث على الكفاح والتحرر والتعلق بالأرض، وقبله:

- نداء الأرض، ص 153.
- شعلة الحرية، ص 162. (تهديها لمصر)
- حلم الذكرى، ص 166، (تهديها لأخيها إبراهيم).

و بعده:

- ذكريات، ص 178، وفيه عود على بدء (لقاء/فراق..)
- وانتظري، ص 182.
- الانفصال، ص 186.

يقوي إدراج هذا النص بين هذه النصوص وفي جزء واحد من ديوانها، ما اقترحه التأويل، إنه شكل من الاستباق، تلمّح به الشاعرة لآتي من حياتها<sup>(1)</sup> أو لتحوّلها، فهي حقيقة جديدة يتحقق فيها حصول الأمل؛ إذ بالكفاح تحقّق الأفضلين أو أحدهما، وهي حقيقة تائهة، تحوّل فيها أسوأ الأوضاع وضعا إيجابيا، يتحقّق فيه التحرير واللقاء، على أن يكون الأول تعويضا عن الثاني، فإن حصل اللقاء بالفناء قبل التحرير كان بغيتها وغايتها من بعد وجود أليم.

يؤدي التركيب ((وجدتها)) معنى مناهضا للفقدان والحرمان الملازمين لحياة الشاعرة، يتضافر مع اللقاء ليصنعا الوضع الإجمالي المتجه نحو التوازن المبني على فعلٍ مآ وَرِدَّةٍ فعلٍ مآ تقابله أساسها التعويض.

### والخلاصة:

1. الفناء في أول الحلم هو امتداد للفناء قبله في الواقع.
2. كل لقاء هو صورة من لقاء الحلم.
3. كل فراق هو صورة من الفراق الحقيقي .
4. الانكسار والشجن فيما بعد الفراق هو الصورة الحقيقية لحال الشاعرة منذ الفراق الحقيقي.
5. كل المواقف الواردة في الحلم هي مواقفها في الواقع:
  - الموقف من القدر.
  - الموقف من النار.
  - الموقف من الزمن.
  - الموقف من اللقاء.
  - الموقف من الفراق.
6. نعمة التفويض والتضرع نوع من الأوبة وطلب الطمأنينة.
7. يصل صراع الرغبات إلى حدّ تحوّل الهجرة إلى الاغتراب ممّا ينمّي أمل العودة والتحرّر.
8. يقوم التحرّر والعودة بدور المعوّض عن كل حالات الحرمان والفقدان التي لازمت حياة الشاعرة.
9. تشابه المواقف وتكرّرها تشاكل وتباين لفظي وتركيبى وتناص أو إعادة إنتاج موضوعاتي.

<sup>1</sup> - ليس في الديوان كله، ما يدل على تسلسل زمني، وإنما هذا التسلسل من فعل القراءة المرتبطة بالحوادث التاريخية، 1941 وفاة أخيها، و1948 قيام الاحتلال الإسرائيلي وقبلها الحماية البريطانية، وتتبع تاريخ صدور كل جزء من الديوان على حدة يبسر الترجيح، غير أن تاريخ الصدور لا يعني أبدا تعيين زمن الانفعال، مما يرجح ما يفترضه التأويل في المتن.

10. يتحقق هذا الفهم باحتمال تحصيل قصد الملفوظ والمتلفظ على أساس الشمولية، ثم البرهنة بالشرح والتفسير على مستويي اللفظ المفرد والتركيب.

11. القراءة مستوى يلي التحليل ويكمّله.

12. آلية القراءة تقوم على:

- عرض وجوه المعنى بوصفها احتمالات ممكنة.

- اختيار وجه وبيان صحته مقابل تهميش الباقي وبيان ضعفها أو عدم ملاءمتها لمعنى السياق

- وحدة نواة الدلالة بين المختار من الوجوه والمتعين سلفا.

- تعيين الاعتراضات التي تقوم عائقا على صحة التأويل.

- دفعها بما يلائم سلامة الاختيار المعنوي تثبيتا له، وتشكيلا للرؤية الواحدة.

وإذا كان هذا هو محمول القسم الأول من الديوان، وكلّه مصروف إلى صراع الإنسان مع الدهر إلا بعضه؛ فإن القسم الثاني تتحوّل فيه إلى صراع الإنسان مع الإنسان، ويكون محتوى المواقف والمحطات الرابطة بين الصراعيين، وهو في الشق الثاني كما في الأول ومضات ثم حقيقة مركّزة كما سيأتي.